محاضرة 07 : أداة الملاحظة في البحث العلمي د. عيدون الحامدي

تمهيد:

يُعد موضوع الملاحظة في البحث العلمي من أبرز أدوات جمع البيانات، وخصوصًا في العلوم الاجتماعية والسياسية، لما تمنحه للباحث من إمكانية "رؤية الواقع كما هو"، بعيدًا عن الاعتماد الحصري على ما يُصرّح به الأفراد في الاستبيانات. وتتيح الملاحظة جمع معلومات دقيقة تُسهم في فهم الظواهر المدروسة، واكتشاف جوانب لا يمكن الوصول إليها بالطرق التقليدية الأخرى. وفي جوهرها، يمكن تعريف الملاحظة على أنها أداة علمية يتم من خلالها رصد سلوك الأفراد أو الظواهر في سياقها الطبيعي، بهدف جمع بيانات موضوعية تساعد على تحليل الظواهر واستنتاج العلاقات القائمة بينها، مع التركيز على أن الباحث يُلاحظ بعين الباحث العلمي، لا بعين المتفرج أو المشاهد العادي.

أولًا: تعريف الملاحظة

الملاحظة (Observation) هي أداة علمية يقوم من خلالها الباحث برصد سلوك الأفراد أو الظواهر كما تحدث فعليًا في الواقع، بهدف جمع معلومات دقيقة تساعده على فهم الظاهرة المدروسة. تُعتبر الملاحظة وسيلة أساسية للوصول إلى بيانات مباشرة وواقعية، بعيدًا عن الاعتماد الحصري على ما يُصرّح به المشاركون في الاستبيانات. وببساطة، يمكن القول إن الملاحظة تعني "رؤية الباحث للواقع بعينه العلمية، وليس بعين المتفرج أو المشاهد العادي"، وهو ما يُمكّن الباحث من إدراك تفاصيل دقيقة قد تغيب عن غيره من طرق جمع البيانات.

ثانيًا: أنواع الملاحظة

تنقسم الملاحظة في البحث العلمي إلى عدة أنواع، يختار الباحث منها ما يتناسب مع طبيعة الظاهرة وهدف الدراسة. أولها **الملاحظة المباشرة أو الميدانية**، حيث يراقب الباحث الظاهرة بنفسه في موقعها الواقعي، مثل متابعة سلوك الناخبين عند خروجهم من مكاتب التصويت، مما يمنحه فهمًا مباشرًا لتفاعلاتهم وردود أفعالهم.

أما **الملاحظة غير المباشرة**، فتستند إلى تحليل تسجيلات أو وثائق سابقة، مثل دراسة فيديوهات الاجتماعات البرلمانية أو المناظرات التلفزيونية، ما يتيح جمع معلومات دون التواجد الشخصي في الميدان. في المقابل، تسمح **الملاحظة بالمشاركة** للباحث بالاندماج في المجموعة أو النشاط لفترة معينة، مثل الانضمام إلى حزب سياسي لدراسة ديناميات اتخاذ القرار داخله، ما يمنحه رؤية داخلية دقيقة.

وهناك **الملاحظة بدون مشاركة**، حيث يظل الباحث مراقبًا خارجيًا دون التدخل، كما في مراقبة احتجاج سياسي من بعيد لتسجيل أنماط السلوك المختلفة. ويمكن أيضًا التفريق بين **الملاحظة المنظمة وغير المنظمة**، فالملاحظة المنظمة تُجرى وفق خطة محددة مسبقًا وبنود واضحة، مثل جدول لتسجيل أوقات بدء الاجتماعات وعدد المتحدثين ونوع القرارات، بينما الملاحظة غير المنظمة تتم بشكل عام ومفتوح، خاصة في المراحل الاستكشافية، لتكوين فكرة أولية عن الظاهرة مثل ملاحظة نقاش عام لفهم طبيعة الخطاب السياسي.

النوع	مثال سياسي	التعريف
1. الملاحظة المباشرة (الميدانية)	ملاحظة سلوك الناخبين عند خروجهم من مكاتب التصويت.	الباحث يلاحظ الظاهرة بنفسه في الميدان.
2. الملاحظة غير المباشرة	تحليل فيديوهات اجتماعات برلمانية أو مناظرات تلفزيونية.	يعتمد الباحث على تسجيلات أو تقارير سابقة.
3. الملاحظة بالمشاركة (Participant Observation)	باحث ينضم لحزب سياسي لفترة ليلاحظ ديناميات اتخاذ القرار داخله.	الباحث يشارك في المجموعة أو النشاط ليفهم من الداخل.
4. الملاحظة بدون مشاركة	مراقبة احتجاج سياسي من بعيد لتسجيل أنماط السلوك.	الباحث يبقى خارجيًا، يراقب دون أن يتدخل.
5. الملاحظة المنظمة	جدول لتسجيل أوقات بدء الاجتماعات وعدد المتحدثين ونوع القرارات.	تكون وفق خطة مسبقة وجدول محدد لما سيُلاحظ.
6. الملاحظة غير المنظمة	ملاحظة أولية لمشهد نقاش عام لفهم طبيعة الخطاب السياسي.	ملاحظة عامة دون تخطيط دقيق، في المراحل الاستكشافية.

ثالثًا: خطوات استخدام الملاحظة في البحث العلمي

تطبيق الملاحظة يتطلب اتباع منهجية دقيقة تبدأ بتحديد الهدف بوضوح، أي ما يرغب الباحث في ملاحظته، سواء كان سلوك الناخبين، لغة الجسد في الخطابات السياسية، أو ديناميات العمل داخل مؤسسة سياسية. بعد ذلك، يختار الباحث نوع الملاحظة المناسب لطبيعة الظاهرة وهدف الدراسة، سواء كانت مباشرة، مشاركة، منظمة أو غير منظمة. يلي ذلك تصميم أداة الملاحظة، مثل إعداد بطاقة ملاحظة أو جدول تسجيل يحتوي على البنود التي سيتم مراقبتها بدقة، لضمان جمع بيانات متكاملة قابلة للتحليل العلمي. عند تنفيذ الملاحظة، يقوم الباحث بالنزول إلى الميدان أو متابعة المصادر الموثوقة، ثم يتم تدوين البيانات وتحويلها إلى معلومات قابلة للتحليل، مع مراعاة الحياد العلمي وتجنب التحيّز الشخصي، لضمان دقة النتائج وموثوقيتها. و عليه يمكن تلخيصها في الخطوات التالية:

1. **تحديد الهدف**: ما الذي أريد ملاحظته؟ (مثلاً: السلوك الانتخابي، أو لغة الجسد في الخطابات السياسية).
2. **اختيار نوع الملاحظة**: مباشرة؟ مشاركة؟ منظمة؟
3. **تصميم أداة الملاحظة**: إعداد بطاقة ملاحظة أو جدول تسجيل (منظم)، يحتوي على البنود التي ستتم ملاحظتها.
4. **تنفيذ الملاحظة** :النزول إلى الميدان أو متابعة المصادر.
5. **تدوين البيانات وتحليلها**: تحويل الملاحظات إلى بيانات قابلة للتحليل العلمي.

رابعًا: مميزات الملاحظة

تتميز الملاحظة بقدرتها على توفير بيانات واقعية ومباشرة تعكس ما يحدث فعليًا، وتكشف عن سلوكيات وأبعاد لا يمكن قياسها بالاستبيانات، مثل تفاعلات الأفراد المخفية أو العفوية. كما أن الملاحظة تُعد أداة أساسية في الدراسات السياسية الميدانية، بما في ذلك الاحتجاجات، الانتخابات، الحملات السياسية، والمناظرات العامة، حيث تتيح فهم الديناميات الواقعية للظواهر الاجتماعية والسياسية.

خامسًا: عيوبها وصعوباتها

على الرغم من مزاياها، تواجه الملاحظة بعض الصعوبات، حيث يمكن أن تتأثر بآراء الباحث أو تحيّزه الشخصي، وتتطلب وقتًا وجهدًا كبيرين لجمع وتحليل البيانات.

كما يصعب تعميم نتائجها على مجموعات أو سياقات مختلفة، خصوصًا عند إجراء الملاحظة في المواقف الحساسة أو المغلقة، مثل الاجتماعات السرية أو المداولات الداخلية للهيئات الحكومية، ما يجعل الباحث مضطرًا لاتخاذ احتياطات منهجية لضمان دقة وموضوعية الملاحظات.

سادسًا: أمثلة من بحوث العلوم السياسية

تتضح أهمية الملاحظة من خلال التطبيقات العملية في الدراسات السياسية. فمثلاً، عند ملاحظة سلوك النواب داخل البرلمان، يمكن تسجيل من يتحدث أكثر، من يقاطع، ومن يصفق، وهو ما يساعد على فهم ديناميات السلطة والتفاعلات بين الأعضاء. كما يمكن ملاحظة الحركات الاحتجاجية لتوثيق كيفية تنظيم المتظاهرين لأنفسهم، والرموز والشعارات الأكثر استخدامًا، وما تعكسه من أهداف ومطالب سياسية. كذلك، تُستخدم الملاحظة في تقييم الحملات الانتخابية، من خلال متابعة تفاعل المرشحين مع الجمهور، والوسائل الأكثر تأثيرًا في إيصال رسائلهم السياسية وتحقيق التأثير المطلوب على الناخبين.

جدول أنواع الملاحظة في البحوث العلمية والعلوم السياسية

النوع	التعريف	مثال تطبيقي في العلوم السياسية
1. الملاحظة المباشرة (الميدانية)	هي رصد السلوكيات أو الأحداث في وقت حدوثها الفعلي وفي بيئتها الطبيعية، وجهاً لوجه.	تواجد الباحث شخصياً داخل مركز اقتراع يوم الانتخابات لمراقبة سير عملية التصويت وسلوك الناخبين والموظفين.
2. الملاحظة غير المباشرة	هي دراسة السلوك أو الظاهرة من خلال آثارها، نتائجها، أو سجلاتها السابقة، وليس وقت حدوثها.	تحليل الأرشيف ومحاضر جلسات البرلمان القديمة لفهم كيفية اتخاذ قرار إعلان الحرب في فترة تاريخية سابقة.
3. الملاحظة بالمشاركة (Participant Observation)	يقوم الباحث بالاندماج في المجموعة التي يدرسها، ويشارك في أنشطتهم وحياتهم اليومية كعضو منهم لفهمهم من الداخل.	باحث ينضم إلى حزب سياسي ناشئ كعضو متطوع لمدة عام، لفهم الهيكلية الداخلية وآليات صنع القرار فيه.
4. الملاحظة بدون مشاركة (Non-participant)	يراقب الباحث الظاهرة من "الخارج" كمتفرج محايد، دون أن يتدخل في الأحداث أو يتفاعل مع المبحوثين لضمان عدم التأثير عليهم.	مراقبة مظاهرة أو احتجاج سياسي من شرفة مبنى مطل على الساحة، أو عبر تحليل تسجيلات فيديو للحدث، دون النزول بين المتظاهرين.
5. الملاحظة المنظمة (Structured)	تتم وفق خطة مسبقة ومحكمة، وتستخدم أدوات قياس دقيقة (مثل قوائم التحقق) لتسجيل سلوكيات محددة سلفاً كمياً أو كيفياً.	استخدام استمارة تقييم محددة لتسجيل "عدد المرات" التي يستخدم فيها مرشح رئاسي مصطلحات "وطنية" مقابل مصطلحات "اقتصادية" خلال مناظرة تلفزيونية.
6. الملاحظة غير المنظمة (Unstructured)	تكون مرنة وعفوية، لا تعتمد على خطة صارمة أو أدوات محددة مسبقاً. تستخدم غالباً في الدراسات الاستكشافية. لتكوين فهم أولي.	حضور باحث لاجتماع شعبي في قرية نائية لأول مرة، وتسجيل انطباعاته العامة حول الجو العام، نوعية الحضور، وأبرز المشاكل التي طُرحت بشكل عفوي.

أولًا: تعريف الاستبيان

الاستبيان (Questionnaire) هو أداة علمية لجمع المعلومات من عينة من الأفراد باستخدام مجموعة من الأسئلة المكتوبة، تهدف إلى التعرف على آرائهم، مواقفهم، وسلوكياتهم تجاه موضوع البحث. ويُعد الاستبيان من أكثر أدوات جمع البيانات استعمالًا في البحوث الجامعية، خاصة في العلوم الاجتماعية والسياسية، نظرًا لسهولة استخدامه وسرعة جمع البيانات منه. ببساطة، يمكن اعتباره ورقة أو نموذجًا، سواء ورقيًا أو إلكترونيًا، يُقدَّم للمستجوبين ليجيبوا على أسئلة متعلقة بالموضوع محل الدراسة، مما يمكّن الباحث من الحصول على بيانات منظمة قابلة للتحليل العلمي.

ثانيًا: أهمية الاستبيان في البحث العلمي

تكمن أهمية الاستبيان في كونه وسيلة فعّالة وسريعة لجمع بيانات من عدد كبير من الأفراد، دون الحاجة للتواجد الشخصي الميداني في كل مرة. كما يتيح للمحقق مقارنة الإجابات وتحليلها إحصائيًا، ما يسهّل عملية التحقق من الفرضيات واختبار العلاقات بين المتغيرات المختلفة. في العلوم السياسية والاجتماعية، يُستخدم الاستبيان لقياس الاتجاهات، المواقف، والآراء المتعلقة بالمؤسسات، السياسات، أو السلوك الانتخابي، ما يمنح الباحث بيانات دقيقة يمكن الاعتماد عليها في الدراسات الميدانية أو التحليلية.

ثالثًا: خصائص الاستبيان الجيد

يجب أن يتميز الاستبيان بعدة خصائص أساسية لضمان جودة البيانات ودقتها:

1. **الصدق :(Validity)** يقيس الاستبيان فعليًا ما يرغب الباحث في قياسه، بحيث تتوافق الأسئلة مع المفهوم المطروح.
2. **الثبات :(Reliability)** يعطي الاستبيان نتائج متقاربة عند إعادة تطبيقه على نفس العينة أو ظروف مماثلة.
3. **الوضوح** :تكون الأسئلة سهلة الفهم ومباشرة، لتفادي التفسير الخاطئ أو الالتباس لدى المستجيب.
4. **الحياد** :صياغة الأسئلة يجب ألا توجّه إجابة المستجيب، أو تعكس رأي الباحث الشخصي.
5. **التنظيم** :ترتيب الأسئلة يجب أن يكون منطقيًا، عادة من الأسئلة العامة إلى الخاصة، لتسهيل استيعاب المستجيب وتسلسل الأفكار.

رابعًا: مكونات الاستبيان

يتكون الاستبيان عادة من ثلاثة أقسام رئيسية:

1. **صفحة المقدمة** :تتضمن تعريف الباحث والموضوع، الغرض من البحث، وتأكيد سرية الإجابات لضمان شعور المستجيب بالثقة.
2. **البيانات العامة للمستجيب** :تشمل العمر، الجنس، المستوى التعليمي، المهنة، المنطقة، وغيرها من المعلومات الديموغرافية الأساسية.
3. **محاور الأسئلة** :يتم ترتيبها حسب فرضيات البحث أو الأسئلة الأساسية، وتشمل أسئلة مغلقة أو مفتوحة.
4. **الخاتمة** :تشمل شكر المشارك على وقتهم، وأحيانًا سؤال مفتوح لإتاحة الفرصة لإبداء الرأي العام أو إضافة ملاحظات شخصية.

5: أنواع الاستبيان

النوع	التعريف	مثال
1.استبيان مغلق	أسئلة محددة بإجابات جاهزة (نعم / لا / اختيارات).	"هل تثق في الحكومة الحالية؟ ☐ نعم ☐ لا"
2.استبيان مفتوح	يترك للمستجوب حرية الإجابة بكلماته الخاصة.	"ما رأيك في أداء الحكومة خلال السنة الماضية؟"
3.استبيان شبه مغلق	يجمع بين النوعين (اختيارات + خانة أخرى).	"من الحزب الذي تراه أكثر تمثيلاً لك؟ ☐ حزب كذا ☐ حزب كذا ☐ آخر".....:
4.استبيان إلكتروني	يُملأ عبر الإنترنت.(Google Forms, Microsoft Forms)	دراسة عبر الإنترنت حول استخدام الشباب للشبكات الاجتماعية في السياسة.

خامسًا: خطوات إعداد الاستبيان

يتطلب إعداد استبيان فعال اتباع منهجية دقيقة تتضمن عدة خطوات:

1. **تحديد أهداف البحث** :ما الذي يرغب الباحث في معرفته من خلال جمع البيانات.
2. **صياغة الفرضيات أو الأسئلة الأساسية** :تحويل أهداف البحث إلى عناصر قابلة للقياس.
3. **ترجمة الأهداف إلى أسئلة دقيقة** :التأكد من أن كل سؤال يرتبط مباشرة بمفهوم البحث.
4. **اختيار نوع الإجابة** :تحديد ما إذا كانت الإجابة مفتوحة أو مغلقة، بناءً على طبيعة البيانات المطلوبة.
5. **ترتيب الأسئلة منطقيًا** :من العام إلى الخاص، أو حسب الموضوعات لتسهيل عملية الإجابة.
6. **تجريب الاستبيان مبدئيًا** :**(Pilot Test)** اختبار الاستبيان على عينة صغيرة للكشف عن أي مشاكل أو لبس في الأسئلة.
7. **تعديله قبل التوزيع النهائي** :تحسين الأسئلة وصياغتها بناءً على ملاحظات التجربة المبدئية لضمان وضوحها وفاعليتها.

سادسًا: أمثلة من بحوث العلوم السياسية

لتوضيح استخدام الاستبيان في العلوم السياسية، يمكن ذكر بعض الأمثلة التطبيقية:

- **استبيان حول الثقة في المؤسسات** :مثل سؤال "إلى أي مدى تثق في البرلمان؟"، أو "هل ترى أن الإعلام حر في نقل الحقائق السياسية؟."
- **استبيان حول المشاركة الانتخابية** :مثل "هل شاركت في الانتخابات الأخيرة؟" و"ما هو العامل الأكثر تأثيرًا على قرارك بالتصويت؟" مع خيارات متعددة مثل البرنامج الانتخابي، المرشح، الحزب، أو لا شيء.
- **استبيان حول استخدام وسائل التواصل السياسي** :مثل "كم مرة تتابع صفحات الأحزاب على فيسبوك؟"، و"هل أثرت منشورات مواقع التواصل في رأيك السياسي؟."

سابعًا: مميزات وعيوب الاستبيان

يتمتع الاستبيان بعدة مزايا تجعل منه أداة شائعة في البحث العلمي، أبرزها:

- القدرة على جمع بيانات من عدد كبير من المشاركين بسرعة وفعالية.
- انخفاض التكلفة مقارنة بالطرق الميدانية الأخرى.
- إمكانية تحليل البيانات إحصائيًا للوصول إلى نتائج دقيقة وعامة.

ومع ذلك، يواجه الاستبيان بعض العيوب:

- احتمال عدم فهم بعض المشاركين للأسئلة بشكل صحيح، ما يؤثر على دقة البيانات.
- عدم الجدية في الإجابات أو الردود غير الصادقة.
- محدودية الاستبيان في التعمق والتحليل التفصيلي بالمقارنة مع المقابلات أو الملاحظة الميدانية.

ثامنا : منصات الاستبيان العالمية(Online Survey Platforms) :هي مواقع أو أدوات إلكترونية تسمح بإنشاء، توزيع، وتحليل الاستبيانات بسهولة، دون الحاجة للطباعة أو جمع الأوراق يدويًا.

المنصة	المميزات	كيفية العمل
Google Forms (مجانية)	Google Sheets سهلة، تدعم العربية، تحفظ النتائج في تلقائيًا.	نموذج جديد" ← " ← "Google" نماذج" ← Gmail تدخل بحساب تضيف الأسئلة ← تنشر الرابط.
Microsoft Forms	،. سهلة الاستخدامMicrosoft مرتبطة بحساب	تضيف الأسئلة ← ← Microsoft Forms تنشئ نموذجًا من موقع ترسل الرابط للمشاركين.
SurveyMonkey	احترافية، تقدم تحليلات ورسوم بيانية متقدمة (لكن النسخة المجانية محدودة).	تنشئ حسابًا ← تختار نوع الاستبيان ← تعدل الأسئلة ← تتابع النتائج مباشرة.
Qualtrics	منصة بحث أكاديمي احترافية جدًا (تستخدمها الجامعات ومراكز البحوث).	SPSS. تتيح تصاميم معقدة، منطق الأسئلة، وتصدير النتائج إلى
Typeform	واجهة جذابة ومريحة للمستجيب، خاصة في البحوث التسويقية أو السياسية الحديثة.	تتيح تفاعلًا بصريًا جذابًا مع الأسئلة (نمط المحادثة).